الفصل الثاني والثلاثون

الطريق الساحلي

منطقة جازان

لا أحتاج لذكر شيء عن جازان أكثر مما قد ورد في فصل سابق. قضيت اليومين التاليين هناك أعد العدة للمرحلة الأخيرة من رحلتنا، وأستوعب الكمية المهولة من البريد التي كانت في انتظاري حين وصلنا. أكد سائق سيارتي الأخبار التي وصلت من الخوبة فيما يخص العطل الذي أصاب سيارتي، وجمّدت الموضوع بأن قمت ببيع السيارة بحالتها الراهنة إلى ضابط الدخل الحكومي المحلي بمبلغ زهيد، إلاَّ أنني اكتشفت في وقت لاحق أنها لم تكن ملكي إطلاقاً، إنما هي سيارة استعيرت بواسطة صديق في جدة لإرجاعي. كان عليَّ الآن أن أعد العدة للسفر بواسطة الحمير والجمال للعودة، غير أن الأمير أشرف على هذا الأمر بكفاءة وكان كل شيء جاهزاً للبداية في الرابع من فبراير، الذي يوافق ٢٢ من ذي القعدة هجري. ويوافق ٩ من ذي الحجة، وهو يوم الحج، ٢٠ فبراير وعليه فبقي لديَّ ١٧ يوماً أقطع فيها مسافة تقارب ٣٠٠ ميل. لقد غطيناها في ١٥ يوماً وذلك بمساعدة سيارة قابلتنا في الليث بأمر من الملك.

كان ممثلا شركة النفط -اللذان ذكرا من قبل- في جازان حين وصلت إليها، وفات عليَّ مقابلتهما وذلك لأنهما انطلقا نحو جزر فرسان في الصباح على ظهر واحدة من أبراج (عبارة) حكومة الحجاز التي تعمل بالموتور، ذات القاع المسطح. كانت ملاحة الربان معطوبة وتعطلت البرجة بعناد في رمال الشاطئ. دهشت في

الصباح التالي وأنا أهيئ نفسي للسباحة على امتداد الحاجز المائي حين رأيت أوروبيين ينزلان إلى الحاجز المائي من مركب شراعي عربي. هكذا كانت مقابلتي لكل من السيد بايك (Pike) والسيد والفورد (Walford)، يستطيع السيد بايك إصلاح مسمار التانجستين لمزواتي التي بدأت تعمل بصورة طبيعية، كانت كل معلوماتهم عن جيولوجيا البلاد واحتمالات النفط في فرسان -والتي كانت سلبية- ذات فائدة كبيرة لي، غير أنني كنت قد تناولت ذلك في فصل سابق فيما يخص جيولوجيا ملح جازان وترسبات الجبس. كان كلا الرجلين أمريكيين، عادا حديثاً من أعمال في الأرجنتين وفنزويلا، وقد بدأ عليهما ضغط ظروف الجزيرة العربية. كانا يعملان بنشاط من شروق الشمس إلى غروبها يومياً لبعض الوقت، ولم يهربا من هجمات الملاريا من حين لآخر. انتهزت الفرصة لمراجعة ساعاتي، إلى جانب التعرف عليهما، مع إشارات الوقت في محطة اللاسلكي. تأخرت أحسب ساعاتي بمقدار ١٢١ ثانية في واحد وعشرين يوماً، معطية بذلك متوسط ضياع بمعدل ٥ ثوانٍ فاصل ٧٦ من المائة من الثانية في اليوم، وبالطبع، لا يستطيع المرء أن يفترض أن المعدل سيظل ثابتاً ومتناسقاً. يمكن لملاحظاتي أن توظف في حالة خطوط العرض ولكن ليس بالتوقيت المحلي وخطوط الطول في الأماكن البعيدة من البحر. تقع ميدي، -حسب خارطة الإمارة البحرية- عند خط ٣٤ دقيقة إلى الجنوب من جازان، أو بالتقريب ٣٤ ميلاً. كان هنالك فارقاً من ١٦ دقيقة لخط الطول، بحيث كانت ميدي هي الأبعد شرقاً لذلك الحد.

رأيت يحيى (أم شريف) من بين الأصدقاء القدامى، وهو الآن في زيارة إلى جازان في أعمال خاصة ببني مالك، كما قابلت موظفي الحكومة المحليين. لم يكن هنالك وقت كثير لأي شيء آخر غير الإعداد للرحلة. تناولنا الإفطار صباح

اليوم الرابع من فبراير، مع الأمير ثم ودعناه عائدين إلى أجنحة سكننا بجوار الحاجز المائي، ثم بدأت قافلتنا السفر في الساعة ١١,٣٠. خرجنا سريعاً من المدينة إلى السبخة الضخمة المسطحة والتي صيرتها الأمطار الأخيرة لزجة ومبتلة. لم يؤثر ذلك على الجمال المحلية، غير أن الحمير وجدت صعوبة شديدة وتقدمت متعثرة حتى عراقيبها في الوحل. استغرق عبورنا لها ٤٠ دقيقة، وبعدها كان كل شيء ميسوراً على الطريق إلى صبيا، الذي وصفته من قبل. لم يكن حماري متميزاً، غير أننا سلكنا طريقنا في محاذاة خط التلغراف الوحيد إلى صبيا. سرعان ما أدركنا جمال العفش وتقدمنا عليها، وكانت قد سبقتنا في البداية بوقت قليل، وبعد ذلك أصبح عددنا في المقدمة ثلاثة أشخاص – شخصي والحمار واثنين من العبيد أرسلهما الأمير لمرافقتنا وحراستنا. كانا يسيران على الأقدام يحملان بندقيتي، وكيس الزاد والترامس وأشياء أخرى، إلاَّ أنهما حافظا على سرعتهما مع سرعة الحمار، التي قدرتها بأنها حوالي أربعة أميال في الساعة.

توقفنا عند بئر السلم، في وسط غابة طلح كانت تملأ أسفل وادي ضمي وذلك لمدة ٤٠ دقيقة لتسمح لجمال العفش أن تتقدمنا مرة أخرى. شاهدنا قبل الوصول إلى هذا الموقع قطيعاً ضخماً جداً من الجمال ومعها أعداد كبيرة من صغارها تستمتع بالغطاء النباتي الطازج للربيع الجديد. كانت تنتمي إلى قبيلة شجيري (أو شواجرة) الذين كانت لديهم قرية على مسافة من ضمد تبلغ ميلين ونصف الميل تجاه أعلى الوادي على الطريق الذي سلكناه، والذي كان في معظمه يقع إلى الداخل بالنسبة لطريق السيارات، غير أنه يتصل به على فترات. مررنا بفرقة طوارئ شرطة صبيا في الصحراء الرملية فيما يلي دلتا الوادي، وتسمى فقرة، وقد تم تسريح واحد منها وهو يتهيأ للعودة إلى جازان لإحضار احتياجات

رحلة العودة إلى مكة. كانت كل الطيور المألوفة متوافرة خاصة في غابة أبي السلم، طيور العوسق تطارد الجراد، إلى جانب نوع أو نوعين غير معروفين للصقور، والعديد من الشقراق الحبشي، وطيور الغداف، وطيور النساج الصغير في أسراب ضخمة، والحمام، والقنابر من أصناف مختلفة، والعديد من طائر الأبلق، والبلابل، والبلاكستارتس، وطيور الصرد، والطيور آكلات النحل، وطيور القليعي المطوق، والعصافير، وغيرها، كانت جنة حقيقة للطيور. وكان العديد منها معشعشاً.

دخلنا إلى حقول غارة المزروعة في وقت لاحق ومن حولنا منظر رائع للمحيط الشبيه بالمنتزه الذي يطوق صبيا أمامنا. امتدت قمم العشش الشبيهة بالخلايا النحلية من فوق رؤوس أشجار الغابات، ولمحنا هنا وهناك بعض المباني ذات الطلاء الأبيض. كانت الشمس تميل نحو الغروب بسرعة، مسقطة وهجاً ورديا فوق قناعها من السحب، وقد غربت بالفعل قبل عشرين دقيقة من وصولنا إلى بئر في وادي صبيا لنجد حُسن ضيافة عبدالرحمن بن غنيم، الأمير النجدي، وهو رجل قصير جذاب، كان هو وحاشيته يتفقدون الوادي تطلعاً لقدومنا، وقدم لي تلغرافاً وصل الآن من الملك وتم استلامه في جازان. تمت الموافقة على خطتي للعودة إلى مكة لأجل الحج، كما توقعت، وأنهى جلالة الملك تلغرافه بالأمل ألاَّ أكون مريضاً كما تنامت التقارير المحلية إليه.

كان هنالك ندى كثيف في الصباح على سفح الأرض حينما بدأنا الرحلة عند الساعة الثامنة تحت سماء ملبدة بالسحب، وصلنا خلال عشر دقائق إلى مفترق الطريق، سلكنا جانبه الشمالي بينما يقود الآخر، ناحية البحر إلى قريتي جرا وجمالة. امتدت الزراعة على جانبنا بعداً وعمقاً، وهي تروى بواسطة السيول من فرع شمالي لوادي صبيا، الذي -مثل كل أودية تهامة هذه- ينتشر فيما يشبه الدلتا. تقف

صبيا نفسها فوق مسطبة مرتفعة بين الفرعين الرئيسين للوادي، لمحنا إلى البعيد وعلى يميننا بركاني عكوة، تكسوهما السحب كأنها كرة من الدخان. واصلنا سيرنا خلال محاصيل الدخن وبعضها قد تم ادخاره في حزم عالية تسمى مزوان (جمع مزاوين) وتبدو تماماً مثل العشش الشبيهة بخلايا النحل التي يسكنها القرويون.

تقع قريتا عداية وحلة العقيبي، بعيداً إلى اليسار من موقعنا فوق أرض مرتفعة قليلاً ومعهما منزل السيد مصطفى ذو القبة البيضاء وهو من الأسرة الإدريسية السابقة. مررنا في وقت لاحق على أرض عارية من الصحراء ذات الشجيرات القصيرة، حيث وصلنا فيها إلى وادي الأجبصية الكثير الشجر وبئره الجميلة التي تسمى أم البزابز في مساحة مكشوفة تحيط بها أشجار الأراك التي نمت فوق ربوات رملية مرتفعة. يعد هذا الوادي امتداداً لدلتا وادي نخلان الذي ينحدر ماراً بالحسينية ويمثله في هذه الأنحاء مجريان مسطحان، رمليان يشقان طريقهما عبر غابة الأراك إلى الداخل حيناً وإلى الخارج حيناً آخر.

كانت البئر عملاً جميلاً بلغت مساحة فمها خمسة أقدام مربعة ومبنية من بازلت جيد يمتد إلى عمق أربعة أقدام، يبدأ من نهاية ذلك صهريج ذو لون وردي – بني يمتد إلى أسفل إلى مستوى الماء على عمق ست قامات. تقع قرى تابعة لقرية الأجبصية بالقرب منها –التي اشتق من اسمها اسم منطقة الدلتا– وهذه القرى هي: حلة الحجازي، والشاخر، وبالبيس، وتبعد الأخيرة هذه على مسافة ميلين ونصف الميل وهي الأبعد تقع مخاريط عكوة البركانية ناحية الشمال الشرقي من موقعنا وتكون سلسلة جبلين إلى يسارهما. أفادني دليلي الذي تم توظيفه في صبيا باسم القمتين الخاصتين لسلسلة جبلين وهما سنادر وكحل، كما أخبرني عن وادٍ صغير يسمى بزعة لينحدر من سنادر، غير أنني اكتشفت في وقت لاحق أن هنالك اختلافاً في الرأي حول هذه الأسماء من قرية إلى أخرى.

واصلنا مسيرتنا ناحية الشمال الغربي عبر غابة الأراك التي تخللتها مساحات عديدة للزراعة، خاصة على جانبي المجرى الشمالي الذي كانت به آثار أمطار حديثة. لقد تكسرت الحواجز التي تحيط ببعض المساحات المزروعة، حقيقة، في أكثر من موقع، ولا تزال الحقول نفسها مبللة. لا بد أن تكون الأمطار التي سقطت عندما كنا في السودة أكثر غزارة إلى الشمال، وسنرى فيما بعد المساحات التي تأثرت بالسيول. يقع طريقنا جزئياً على قمة امتداد حاجز عريض، يبلغ ارتفاعه ١٢ قدماً، وكانت المحاصيل مزدهرة بصورة مدهشة على الجانبين تتخللها برك عديدة كبيرة مملوءة بالمياه.

لم يكن هنالك حد فاصل بين حقول القرى المختلفة من حولنا، ومررنا بلا شعور داخل دلتا وادي وساع ووادي شهدان، حيث توجد مزارع قرية شخير وقريتين أخريين صغيرتين، هما أبو السلع ودماري. توقفنا قليلاً في شخير، وهي قرية طويلة متعرجة، عششها كأنها خلايا النحل، وذلك لمسح المحيط المجاور. يتقابل الواديان اللذان ورد ذكرهما على مسافة ميلين ونصف الميل تجاه أعلى الوادي عند قرية بلقعيد إلى الشمال الشرقي، بينما تقع قرية كبيرة أخرى أمامنا ناحية الشمال الغربي وتسمى الملحا، تابعة لقبيلة الأشراف فرع آل الملحة، الذين يبدو أنهم يكونون العنصر الرئيس للسكان في كل هذه القرى. تقع قرية العشة الصغيرة على بعد ميلين ناحية الغرب، كما نستطيع رؤية منازل صبيا من بعيد من ورائنا ناحية الجنوب الشرقي. شمخت قمة جبل قورا البارزة في السلسلة الخارجية للتلال. كما بدت الجبال العالية المحيطة بجبل الريث شاحبة، على بعد. كانت كل هذه البلاد ثرية بالغابات كما امتلأت أشجار الطلح بأعشاش الطيور النساجة، وقد بنتها على الورق وليست متدلية كما هي العادة.

وجدنا مجرى شهدان الرئيس وهو يدور، عندما اقتربنا من الملحا من جهة الجنوب، في ذلك الاتجاه بين أجمات أثل كثيفة. ينحدر الطريق إلى بطن الوادي العريض، الذي كان مبللاً جداً، وكان السير فوقه صعباً بسبب السيول الأخيرة. يسمى هذا الطريق محلياً باسم الفرشة، وهو اسم شائع في الجزيرة العربية لمناطق معرضة لسيول قوية، ويتصل به من أسفل فرع من وادي بيش ليطوق منطقة القرية داخل حلقة. لا يزال عدد من البرك ممسكاً بمياه السيل التي فيها ومن حولها تشاهد المئات من طيور البلشون البقرية تستمتع بالحياة. تنتشر بيوت القرية بلا نظام في مجموعات عديدة من المساكن عند قدم ربوة عالية عريضة وعلى سفوحها، مسيطرة على الوادي من ارتفاع أربعين قدماً.

توقفنا فوق هذه الهضبة بعد أن مررنا بالجزء الجنوبي للقرية، لننال ساعة من الراحة. قام بزيارتنا على الفور رئيس القرية الشيخ مكي، من قبيلة الأشراف (آل ملحة) التي قد هاجرت أصلاً إلى هنا من قرية دهناء إلى الغرب. أفادنا بأن السيل الأخير لم يكن له مثيل من قبل من حيث قوته، وأنه لا يذكر مثيلاً لهذا السيل طيلة حياته. لقد جرف السيل بعض الرعاة أعلى الوادي وأغرقهم وكان هنالك خوف شديد على سلامة القرية، إلاَّ أنها لم تصب بأذى. لم تتجاوز سيول كل من شهدان وساع –قرية بالقعيد– إلاَّ أن وادي بيش حين فيضانه وصل إلى الملحا بأقصى سرعته ومضى يدوي حتى فرشة. تمثل الربوة التي نقف عليها الآن بقايا جبل يمتد فوق ما أصبح الآن بطن وادٍ، ويأوي مستوطنة الملحا الأصلية. لقد تدمرت هذه القرية وجرفها سيل عام ١٣٣٥ هجري (١٩٢٠ ميلادي) العظيم، والذي كوَّن خلاله وادي بيش المجرى الذي نراه الآن أسفل منا. كانت هذه الربوة في هذه المناسبة، هي المتراس للقرية وقد استدار السيل من حولها بدلاً من أن يجرفها. يمكن رؤية دهناء

من هنا وهي فوق أرض مرتفعة، إلى البعيد، وناحية اليمين بينما إلى ناحية اليمين أكثر، وأكثر بعداً تُشاهَد قريتا قبيلة السلامة، وهما عليا وسفلى.

توقفنا هنا لنسمح لقافلة جمال العفش أن تصلنا، ولنستمتع أيضاً بالمنظر. واصلنا سيرنا بمجرد ما لمحنا جمال العفش وهي قادمة نحونا، بدأنا أولاً بجولة في القرية، ثم ضربنا الطريق في اتجاه الشمال الغربي من الطرف الشمالي للقرية. كان موقع (قرية أبو سلع) أصلاً في هذا الموقع، لتكون جارة قريبة من الملحا، إلاَّ أنها جرفت في سيل ١٩٢٠م وهاجر ساكنوها إلى الموقع الحالي فوق أرض أكثر أماناً ناحية الجنوب الشرقي. يعلّم قسم منعزل من الملحا يقف على مسافة ٥٠٠ ياردة إلى يميننا، الموقع الذي تراجع إليه السكان بعد أن فقدوا منازلهم في ذلك السيل. فضل البعض منهم أن يظلوا هناك بصفة دائمة بدلاً من العودة إلى الملحا الجديدة. وصل وادي بيش إلى البحر، خلال السيل الحديث، عن طريق هذا المجرى، الذي يقع الآن على يسار طريقنا على شكل حوض عريض وعميق بعض الشيء يبلغ عرضه ٢٠٠ ياردة. انطبع في ذهني لطف الشريف مكي وأهله، لقد كانوا بسطاء يتمتعون بقدر عظيم من الكياسة. لم يكن هنالك أي عنصر كبير أفريقي - يطلق عليهم بصفة عامة لفظ عبيد في هذه الأنحاء، علماً بأنهم ليسوا رقيقاً- داخل سكان الملحا، إلاَّ أن العرب، كانوا أصلاء النسب أو مختلطي الدماء، يبدون وكأن ليس لهم ولاءات قبلية ما عدا -بالطبع- الأشراف.

يقع طريقنا أولاً خلال منطقة لأشجار الطرفاء والشجيرات الخفيضة مع أشجار الدوم سيئة الحال هنا وهناك، ثم عبر تلال رملية منخفضة عليها شرائط من طين نهري تنمو عليه أشجار الأراك والطرفاء وعشب الثمام بكثافة. مررنا فيما يلي هذا عبر حقول الدخن التابعة لقرية المحلة الصغيرة، التي توقفت بجوارها لحظة لإطلاق رصاصة على

صقر يقف فوق شجرة، غير أن بندقيتي لم تعمل أو أن الخرطوش كان معيباً. بدا مظهر كل هذه الأرض وكأنها داخل شريط السيل، برغم أنه لا يوجد مجرى مميز، وكان القرويون دائبي النشاط بتنظيف مساحات وإقامة حواجز في أرض بور للزراعة فوق البلل الذي ظل موجوداً عليها. كانت قطعان ماعزهم من سلالة جيدة، وللذكور قرون طويلة أفقيه ملتوية وتبدو مكتملة الذكورة بصورة واضحة.

وصلنا مجرى سيل آخر، عريض سببه السيل في وادي بيش بعد ساعة من مغادرتنا الملحا، وهو يمتد من جهة الجنوب الغربي ماراً بقريتي عاليا ودهناء إلى البحر. كانت لا تزال به آثار السيل الأخير في طينه المبتل في الحفر الجافة التي كان من الواضح أنها قد امتلأت بالماء حديثاً. كان علينا أن نعبر حفرة واسعة عميقة لنصل إلى شاطئه البعيد، والذي فيما يليه يجري طريقنا فوق أعالي المتاريس التي تقي الحقول التابعة لقريتي السلامة وقد ورد ذكرهما. رحب بنا عند واحدة من هذه القرى الشيخ المحلي، واسمه محمد بن إبراهيم، غير أننا انتظرنا معه مدة ربع ساعة لنفحص ما لا يمكن وصفه من العشش الشبيهة بخلايا النحل والجامع المخرب الذي كان محمد فخوراً به. كما لاحظنا قريتي نجمة وسعدى في الجوار ومررنا بمجموعة من أشجار العلب اللطيفة، عند حافة غابة واسعة لأشجار الأراك، التي كانت بداخلها مساحات نظيفة لزراعة الدخن.

استمرت المزارع متقطعة عدداً من الأميال، حتى وصلنا إلى قرية أم الخشب الكبيرة، والتي يسمونها -عادة- بيش، وهي بالتأكيد أكبر قرية تواجهنا منذ صبيا. كان علينا أن نعبر مجرى سيل ضيق وضحل وحاجز بارز منخفض على جانبه البعيد لكي نصل إلى أم الخشب. دعينا إلى مقر الشريف المحلي- وهو عشة جميلة جداً على نمط خلية النحل، وقد طليت الجدران الداخلية بالطين حتى

القمة. تتدلى كل الأغراض المنزلية من مشابك على الجدران -حصائر من القصب من أحجام مختلفة، وسلال من المادة نفسها، وجرار ومقالي وهكذا. وضعت على أرضية العشة سرائر منخفضة من الحبال للجلوس عليها أو الاضطجاع، وكان كل المكان نظيفاً إلى حد بعيد. كان الشريف الرئيس -واسمه قاسم- غائباً إذ ذهب لأداء الحج في مكة، إلا أن ابنه الجميل المحيا (حسن)، اكتسب شرف المناسبة هذه، بمعاونة شقيقه الأكبر الأبله، ويسمى حُسَيْناً. تميز حسين بأن قدم لحماري أعواد الدخن وأدار الحديث بسرد ممل لكراهية زوجته له. بالتأكيد لقد كان كاملاً جميلاً من زوجته، إذا كان حديثه صادقاً جلست خلال كل هذا بصبر، في انتظار الكرم المتوقع من أهل المنزل، وسرعان ما أحسست بأنه لن يكون هنالك ما سيقدم لنا، ولا حتى القهوة. استطعت أن أخرجهما من العشة بحجة أنني أرغب في الراحة، وحينها استمتعت بكوب شاي من ترمسي وقطعة خبز وعلبة شرائح أناناس. لقد أحضر لنا أمير صبيا، بالمناسبة، البرنجال والكوزة- وهي رفاهيات غير عادية- لعشائنا في الليلة الماضية.

دعيت لزيارة السوق بعد أن استرحت وأبديت رغبتي لرؤية البلدة، حيث اشتريت فجلاً أبيض كبير الحجم لوجبتي التالية. يوجد في أم الخشب، كما في غيرها من القرى المجاورة، سوق يومي دائم، يقبل عليه كل الناس من مسافات بعيدة للبيع والشراء. دعاني تاجر يمني اسمه سيد عبدالله، -جاء أصلاً من تعز- للإقامة هنا، لزيارة منزله، وهو بناء حجري تحيط به مجموعة من العشش. اطلعت على منظر شمولي للقرية والجوار من فوق السطح، إلى البعيد حتى قرية مسلية حيث سنقضي الليلة. تقع قريباً منا قرى زكريا، وشرية، وحلة الجلي. وتقع ناحية الشمال الغربي السلاسل البركانية المنخفضة لكل من صفصاف

وآل السودة، كلاهما يبدو لي من تكوين حديث نسبياً مثلهما مثل قمم عكوة. تقع أم الخشب على مسافة ٤٠٠ قدم فوق سطح البحر، وبها ما يكفيها من المياه، التي يتم سحبها من آبار عديدة مبنية على عمق عشر قامات. كانت قرية كبيرة إلاَّ أنها منتشرة، غير أنني وجدتها مثبطة تماماً برغم كل ما سمعته عنها فيما يخص حجمها وأهميتها. كان كل من حجمها وأهميتها أمراً نسبياً، وقد يصل عدد سكانها إلى ٥٠٠٠ نسمة. كان سوقها هو مصدر قوتها الرئيس، كما أن بها صناعة أصباغ مزدهرة. يزرع نبات الأندقو هنا بكثافة لأجل صناعة الصبغة، وقد شاهدت في موقع واحد ما لا يقل عن عشر رافودات ممتلئة بالسائل اللزج الأزرق، الذي يقوم العاملون بتحريكه أو جسه بواسطة أعمدة طويلة. يبدو أنهم يقومون بتحضير الصبغة استعداداً لاستلام الأقمشة التي ستعالج، غير أنني لم أر عملية الصبغ نفسها. شاهدت في موقع آخر كومة من نبات الأندقو تجفف تحت الشمس فوق أرض طينية، ربما استعداداً لخطوة تالية في عملية التصنيع.

لمحت جمال عفشنا تعبر خلال القرية أثناء ما كنت منشغلاً بهذه الفحوصات، إلاَّ أنني تمكنت من اللحاق بهم بجوار البئر على جانب الطريق قليلاً فيما يلي العشش. كان العديد من السكان هناك يسحبون الماء لحيواناتهم ولأغراضهم المنزلية وكان جَمْعُهم هذا منظراً يشع بالحياة، وقد استمتع برؤيته رفاقي وهم ينتظرون دورهم في الدلاء. تركتهم هنا وواصلت تقدمي خلال المنطقة المزروعة التي يجري فيها الطريق على امتداد بهو يقع بين متراسين متوازنين. كانت هنالك أسراب ضخمة من طيور الغداف من الصنفين وهي تحلق فوق وتهبط في الحقول مستمتعة بتناول وليمة الحبوب الساقطة. لا يبدو أن أحداً يزعجه ذلك، ولربما كان هنالك ما يكفي لكل قادم جديد، بشري أو من ذوات الريش.

تركنا قطار عفشنا عند البئر وواصلت سيري بأسلوبي يرافقني مرشدي من صبيا والعبدين الاثنين من جازان. اقتربنا خلال ٢٠ دقيقة من شرية، التي تقع إلى الخلف من الطريق، وفي ثلاث مجموعات من العشش، منتشرة على مسافة نصف الميل. انتشر قسم آخر عبر الطريق، بعد مسافة قليلة، حيث كانت هنالك أبقار تتناول شربتها المسائية من البئر، وعدد من الأطفال يحملون جرار الماء المنزلية التي يقوم بتعبئتها -حسب الدور- زنجي قوي البنية، ويبدو أنه المسؤول عن توزيع الماء. تحمل الجرار بعد ملئها على ظهور الحمير فوق أسرجة بدائية يكون على كل جانب منها جرة واحدة. تأخر الوقت كثيراً عندما عبرنا خلال مزارع القرية، مساحة واسعة من حقول ذات متاريس ويبدو أنها انتفعت من السيول، برغم أنه لا يوجد ما يفيد بوجود مجرى. تسمى هذه الأرض الكدرة وقد امتلكها بالشراء تاجر حضرمي اسمه محمد بن يحيى العوضي. وهو الذي قام ببناء قرية خاصة به وبأسرته وبعماله اسمها الكدرة أو بيت العوضي، يبدو أن محمد نفسه من ملاك الأراضي الغائبين على الدوام، ويقوم بإدارة اهتماماته وكيله أحمد بهكلي من مواطني صبيا. احتل مستأجر يمني وأسرته قرية أخرى صغيرة تسمى المطعن وتقع في جزء منعزل من هذه المنطقة.

تنتهي الأراضي الزراعية فيما يليها وتنتشر غابات الأراك، ويستمر الطريق فوق أرض ثابتة طينية كان ينتشر فوقها عشش يسكنها مستأجرون ورعاة. يفيد تعدد طرق الجمال بوجود طريق سريع ومهم، ربما كان طريقاً مساعداً لطريق الحج الذي يربط منطقة بيش العليا مع طريق الساحل. مررنا في هذا الطريق على القسم الرئيس لقرية المطعن الصغيرة التي لا توجد حولها مزارع. لم يكن الشيخ المحلي واسمه أحمد بن علي الفقيه من الأشراف، ولا من أي قبيلة عربية، بل كان مقيماً عابراً اهتم برعاية

الأبقار والماعز في هـذه الأراضي الواسعة ذات غابات الأراك. وصلنا فـيما يلي هذا الموقع إلى الحقول الخـارجية، وكان مـعظمها بوراً، لقرية مسـيلة نفسها وقـد فصلها طريق الجمال عن الغابة، التي تقع الآن على يميننا وتختفي تدريجياً ونحن نقترب إلى محيط نقطة الوصول. كانت ضواحي مسـيلة معلمة بظروف شبه المنتزه، بالعديد من أشجار العلب ومساحات متفرقة من أشجار الدوم. كانت الحقول على جانبي الطريق لا تزال بوراً. وقد وضح لي فيـما بعد أن السيول الأخيرة لم تصلهـا مطلقاً. كانت طيور الغداف عائدة إلى أعـشاشها في الغابة بأعداد كبيـرة في هذا المنتزه بعد غروب الشمس، كان كلا صنفـيها ممثلاً هنا، علماً بأنني كنت أعتقد أن مـروحية الذيل منها كانت هي السائدة. يوجد شريط عريض من محصول الذرة بين منطقة المنتزه والقرية، وقد ركبت الحمار خلالها مدة عشر دقائق.

دخلنا مسيلة من طرفها الغربي من طولهـا ووقع اختيارنا على موقع مكشوف بين صفين متباعدين من منازلها لإقامـة معسكرنا المؤقت. كانت الشمس قد غربت قبل نصف سـاعة حينمـا انتهينا من هذا، وهبط علينـا ظلام الليل، ولم يظهر أي صوت أو حس أو علامة لقافلة العفش والجسم الرئيس. سيـجدون صعوبة حقيقية في اكتشاف الطريق إن لم يكن معهم مرشد كفء، ذلك لأن مسلية تقع بعيداً عن الطريق الرئيس والذي يمكنهم استـمرار السير عليه دون مـلاحظة المفترق. أرسلت عَبْدَيْ جـازان الاثنين لمساعدتهم وبقيت وحدي ومـعي دليلي ولا شيء آخر، ذلك لأن كل العفش كان خلفنا ما عدا السلة التي تحتوي على غذائي اليومي والتي كنت أحملها معي. كنت محظوظاً إذ احتفظت بعباءتي معي تحذراً أن تمطر، وقد لففت السلة بمعطفي الكاكي، الذي خدمني كوسـادة وأنا أنتظر. كان انتظاري بلا فائدة. لم أر العبدين بعد ذلك، وذلك لأنه بعد فشلهما في الاستدلال على قافلة العفش

قـررا قضـاء الليلة في أم الخشب. لم يـصل العفش كـذلك، وظللت ومرشـدي وحيـدين، دون أن يشرف على رعايتنا أحـدٌ حتى القرويون. يـبدو أننا دخلنا إلى أرض لا يعرف أهلها أعراف العرب الخاصة بالكرم، أو أنهم لا يحترمونها، وذلك لأنه لم يبدُ أي أثر للمـحاولة من جانـب القرية لإمدادنا بالضـروريات -ولا حتى قطعة من خبـز أو قحف من لبن- لقد نفد مخزوني الخـاص من المؤن بسبب عدم الكرم، وكان كل ما معنا هو الفجل الذي حصلت عليه من أم الخشب.

لم يكن هنالك ما أفعله غير أن أنام مـبكراً، غير أنه يبدو أن في القرية حفل عرس أو شيئاً من هذا القبيل، وقد ظللنا مستيقظين نستمع إلى الغناء الجذاب الذي يذكرنا بأهل بني مالك، إلـى وقت متأخر من الليل. استـغرقت بعد ذلك في نوم عميق طويل، على أمل أن استقبال الصبـاح قد يصحبه حظ أفضل، غير أنه للآن لم يقـترب منا أحـد. قررت أن أبدأ بالمبـادرة فأرسـلت دليليَّ إلى القـرية لطلب الطعام – خبز، وبيض، ولبن أو أي شيء. استجابة لذلك، عادا ومعهما بيضتان، مؤكدين أنهـما لم يجدا غير ذلك، ولـم يعرفا كيفـية طبخهمـا، وذلك لأنهما لم يأكلا البـيض أو الدجاج مطلقاً. ومن المؤسف أننا لم نسـتطع طبخهمـا حيث لم يحضرا معهما الحطب، غير أن سيدة طاعنة في السن، عطوفة، من منزل مجاور، أخذتها الشفقة علينا، وأحضرت مـعها قدرها المغلق الذي يعمل بالفحم وقدر ماء لنستعملهما. كان الأيسر لنا أن تقـوم هي بطبخ البيض لنا في منزلها، وأعتقد أنها لن تقبل أن تفعل ذلك. قد يلي ذلك أكل المادة الممنوعة. لم أر في الجزيرة العربية أن الجائع المحـتاج يعـامل بمثل هذه المعاملة، وقـبل أن أغادرهم انتـهزت الفـرصة لأخبر القرويين عن رأيي فيهم. صرفـتهم بعد أن أسقطت عليهم اللعنة في كل ما

يقومون به من أسلوب مألوف لديهم، ثم شرعت في المغادرة. أرسلوا لي في آخر لحظة مُوفداً يقدم لي قحفة من اللبن وقد رفضتها بكل عجرفة مع تكرار للعنات على القرية، وركبت مطيتي بكل احتمالات أن أظل جوعاناً طيلة بقية اليوم. كانت مسيله قرية منتشرة غير واضحة تمتد مسافة نصف ميل من الطرف إلى الآخر، ويبلغ عرضها ٣٠٠ ياردة، وبها قلعة جذابة غير أنها مخربة، ربما بناها الأدارسة عند طرفها الشرقي. يقام سوقها كل يوم سبت.

نفضنا تراب مسيلة عن أقدامنا عند الساعة ٨ صباحاً دون أسف عليها، وتوجهنا إلى الأمام في انطلاقة للمرحلة التالية من الرحلة. ركبت الحمار بينما سار الرجل القادم من صبيا على رجليه. لقد شارف على نهاية نطاقه الجغرافي ويعرف القليل عن البلاد التي تقع أمامنا كما أعرف أنا عنها. كان هدفنا الأول هو العودة إلى الطريق الرئيس وأن نسلكه في اتجاه الشمال، كما كنا نتمنى أن نتصل مع رفاقنا المفقودين. لا ندري إذا كانوا بدورهم يبحثون عنا أو أنهم واصلوا السير على الطريق الذي كانوا عليه في آخر مرة رأيناهم فيها. ضربنا السير غرباً فوق أرض متموجة رملية ذات شجيرات قصيرة على امتداد الحافة الشمالية لدلتا بيش، التي تقع قريباً من يسارنا أول الأمر، ثم تباعدت عنا تدريجياً ناحية الجنوب. لم تكن أرض الشجيرات كثيفة جداً إلا أنها كانت مغطاة بنبات الثمام والحمض وشجيرات قصيرة أخرى، مع بعض مجموعات من المرخ. تكاثف هذا تدريجياً حتى صار غابة كثيفة تشتمل على السرح والطلح والقطف -بأزهاره الصفراء- وكلها سائدة. لقد أفزعت حركتنا أرنباً برياً داخل إحدى الشجيرات، كما أفزعنا غزالاً منعزلاً، كما كنا نعبر بمجموعات صغيرة من الجراد وكانت تتكاثر بوضوح إذ إن معظمها كان في حالة تزاوج.

وصلنا إلى طريق السيارات بعد نصف ساعة من بداية الرحلة إلاَّ أنه كان يتجه غرباً، وقررنا أن نمضي ناحية الشمال الغربي تجاه السلاسل البركانية لآل سودة. كان هذا يعني السفر بلا رؤيا وذلك لأن الغابة كانت كثيفة جداً، وقد تمت بأكثر جاذبية في القفار، وبدا لنا أننا نمتلكها لمصلحتنا فقط، فيما يخص البشر. كنا نفزع من حين لآخر الغزلان من مراعيها المنعزلة، كما كان طائر الشقراق الحبشي متوافراً وقد لاحظنا الحبارى العربي تتلصص إلى الاختباء. أصبح سطح الأرض صعباً ونحن نقترب لخط وادي سر، وأصبحت البلاد مكسرة برغم أنها جيدة الغابات. رفعت أشجار الدوم من حين لآخر رؤوسها فوق أشجار الغابة. كما بدأنا نلاحظ وجود الضأن وبعض الجمال وهي ترعى، بينما احتمى مالكوها بجوار البرك المائية للمجاري العديدة التي تعترض هذه الأرض. عبرنا واحداً من هذه الأحواض، كان عرضه حوالي ٢٠ ياردة وخرجنا منه إلى حزام حصوي كأنما هو سد نهري قديم، ونزلنا فيما يليه إلى وادي سر نفسه – وهو المجرى الرئيس. كانت أشجار الدوم هنا أكثر انتشاراً ومعها الأراك وعدد من أشجار الطلح والقطف وغيرها. وجدنا رجلاً طاعناً في السن داخل عشة منعزلة سقفها من القصب يقوم بعناية رجل مريض بمساعدة كلب مزمجر لئيم. كانت أغنامهم وماعزهم تستمتع هنا وهناك بالمراعي المزدهرة. يجري بطن السيل في هذا الوادي العريض في أكثر من شريط، تسلقنا فيما يليه السفح المرقط بالشجيرات القصيرة على جانبه الأيمن لنلقي نظرة من القمة على البحر البعيد.

لم يعد هنالك شك حول الأصل البركاني لسلسلتي صفصاف وآل سودة، وليستا بعيدتين، بينما على بعد ناحية الشمال الغربي، وهو الاتجاه العام لمسيرتنا، نستطيع رؤية القمم البارزة غير أنها منخفضة لسلسلة تسمى -كما تأكد لنا فيما بعد-

حرامين. امتدَّ سهل واسع من طرف أرض مرتفعة إلى البعيد وعلى يميننا إلى حد ما قريباً من البحر، تكسوه شجيرات قصيرة وحشائش مع قليل من الأشجار والجنبات الكبيرة من حين لآخر. مررنا في هذا السهل بملاجئ للرعاة، وقد وجدنا رجلاً وثلاثاً من النسوة ومعهم قطيع من الماعز. ارتفع السهل تدريجياً إلى سلسلة منخفضة، هبطنا منها قليلاً لنعبر ثلاثة مجارٍ منفصلة لوادي سودة، وقد نمت على حافاتها أشجار الدوم بغزارة ويستمر على امتداد حافة الأرض البركانية التي انتشرت أمامنا على شكل ربوات خشنة ذات غطاء نباتي شحيح. أدى دخولنا هذا الموقع إلى نفور غزالتين وأرنب بري كما كانت هنالك جمال ترعى في الأودية. كان لكل واحد من هذه الأودية اسمه الخاص به، غير أنني جمعتها كلها معاً بكونها أجزاء من وادي السودة وذلك لأننا لم نجد من الناس من يمكنه إعطاءنا معلومات دقيقة. عبرنا خمسة من هذه المجاري قبل أن ندخل إلى وادي رضا ذي الشواطئ المنحدرة، العميق والضيق، وقد تحصلنا على اسمه من أحد الرعاة كنا قد ألقينا عليه التحية وسألناه عن الطريق. كما أخبرنا أن مشرب الرضى يقع على مسافة ٥٠٠ ياردة مع اتجاه الوادي عند العبور.

كنا نسير الآن فوق أرض عندها وقفات قصيرة خلال أربع ساعات، كان رفيقي ليس فقط ماشياً على رجليه، وإنما كان يحمل عني ممتلكاتي لأكون متحرر الحركة لأقوم بمسوحاتي – وقد بدا عليه الإرهاق، ولعل هذا سببه الجوع والعطش أكثر منه الجهد المضني، ثم شعر رفيقي بالتحسن بعد دقائق حينما وصلنا إلى الطريق السريع الذي كنا نبحث عنه، وهو يمتد فوق جبهة عريضة في الخطوط المألوفة عبر الحرة المتكسرة والسهل البازلتي. كان هذا واحداً من الطريقين الرئيسين المتجهين من الجنوب إلى الشمال في تهامة، وهو الأكثر قرباً إلى البلاد الداخلية،

ذلك لأن الطريق الآخر يحتضن الساحل كثيراً في القطاع. عبر الطريق ثلاثة مجارٍ لست متأكداً من أسمائها -تم تعريفهـا فيما بعد على أنها درب معقر-، مررت في واحد منها برجلين واثنتي عـشرة امرأة وبعض الجمال، متـجهين جنوباً ربما للعمل في الحصاد في وادي بيش. كـان أحد الرجال يرتدي ملابسَ مصبـوغة بالأخضر. كان سير حماري الآن أفضـل على طريق مطروق، وحاول الرجل القادم من صبيا أن يماشي سيـر الحمار. كان مـتخلفاً وراءنا إلى البـعيد حـينما وصلت إلى وادي سمرة -أو ثمرة-، وهو مـجرى جذاب جداً ينفرج عبـر شريط عريض من بازلت مائل، تنتـشر فيه العـديد من البرك المائية في تجـاويف صخوره. كان أحـد الرعاة يقوم بسقي قطعانه هنا إلاَّ أنه نفسه لم يشرب من البرك خوفاً من الحمى. قام بدلاً من ذلك بحفر الرمل، وشـرب الماء وهو ينز منها. عملت مثل مـا فعل ووجدت الماء بارداً ومنعشـاً. وصل رفيقي أخـيراً وهو مرهق واسـتلقى على يديه وركبتـيه وأخذ يلعق الماء كما يفعل الحيوان.

يتجه الطريق فيما يلي هذا المجرى ناحية الشمال الغربي على السهل نفسه ذي الحصى الذي تعتـرضه خطوط صرف من حين لآخر. كانت أشـجار الرنف مزهرة كما تكاثرت أعـداد أشجار الدوم. بدأ السطح على بعد ينبسط ويصـير أملسَ وقد كـساه حـصى خفـيف ورمل وطمي، وانحـدر بلطف إلى وادي بيض المهم، مع مجرى مـعتبر وبحيـرة في موقع عبورنا. كشـفت علامة مستـوى الماء العالي على الشاطئين عن الإثبـات بأنه قد كان هنالك سـيل قوي وقع حديثاً، ويعـزى وجود مسطح مائي واسع لهذا السبب أيضـاً. يكوّن سداً من البازلت عبر الوادي في هذا الموقع خزاناً طبيعياً لتنظيم مياه السيـول، كما كانت هنالك طبقة سميكة من خليط بركاني تكون جزءاً من الجانب الأيمن. كما يوجـد إلى جانب أشجار الدوم انتشار

كبير لأشجار الباليتو (النخيل) على جانبي الوادي. استمر السهل الحصوي المتدحرج فيما يلي هذه ومعه غطاؤه النباتي الشحيح وخطوط الصرف المتكررة. كان واحدٌ منها فقط، -ولا أعرف اسمه- يتمتع بأهمية خاصة وأخبروني في درب أنه وادي دبار. ينحدر مرة أخرى المجرى عند عبورنا له فوق حاجز بازلتي، على أرض ذات تكوين خليط كحلوى البودنق وقد تخلله بعض الجلاميد، كما تكاثرت أشجار الدوم. مررنا فيه برجلين من الأعراب ومعهما حمل وحماران متجهين نحو الجنوب بحثاً عن العمل، لعلَّ الأخبار عن السيل العظيم هي التي دفعت الناس إلى التوجه إلى وادي بيش. كانت طيور الشادي الأورفيني وطيور العداء القشدية اللون مشاهدة في هذا الجوار وكذلك سرب صغير من طيور القطاة على الطريق منتظرة فرصة شربها للماء. كانت الغزلان متكررة الظهور أيضاً كما كان هديل الحمام يسمع في كل وادٍ - تحولت البلاد تدريجياً وبلا شعور منا إلى أرض غابات وتطورت إلى غابة كثيفة نسبياً في أرض الدلتا لوادي رملان، على مسافة قليلة من سلسلتي حرامين واعكدين.

أدركنا أثناء سيرنا اثنين من الهنود في هذه المنطقة كان أحدهما من دلهي والآخر من كلكتا، سائرين على الأقدام إلى مكة لأداء الحج. نزلا في ميدي وسارا على الأقدام من هناك، تحاشيا للرسوم التي يجب دفعها بواسطة الحجاج الذين يهبطون في جدة وغيرها من الموانى العربية[1]. ويتسللون عبر الحدود أثناء الليل لتحاشي ملاحظة الموظفين المحليين. لم يبق أمامهم إلاَّ وقت قليل جداً

(١) يبدو أن استنتاج فيلبي هنا غير دقيق؛ لأن المشي من جنوب الجزيرة إلى مكة المكرمة سيكلف أكثر من الرسوم التي كان عليهما سدادها، وربما أنهما أرادا السير على الأقدام اعتقاداً منهما بأن الحج لابد أن يكون بمشقة .(المراجعون).

للوصول إلى مكة في الوقت المحدد، ولا أدري إن كانا قد نجحا في ذلك أم لا. سنقابلهم مرة أخرى في الطريق.

كان منظر المجرى الرئيس لوادي رملان عظيماً، حيث نشاهد أفضل أشجار الدوم التي رأيناها متباعدة بتفرعات سيقانها في الوادي أعلى وأسفل الطريق. كان بطن المجرى مكسواً بالحصى كأنه ساحل البحر وكانت الجوانب المنخفضة من مادة مختلطة خشنة كونغلمراتية. كان علينا أن نعبر خطاً آخر لهذا الوادي قبل أن نصل إلى أرض الغابات على الجانب الآخر والذي يجري عبره طريق الحاج قريباً من سلسلتي حرامين وأعكدين وموازياً لهما مكونة جزءاً من جزيرة بركانية تفصل وادي رملان عن الدلتا العريضة لوادي عتود. كانت الشمس معلقة عند الأفق كأنها برتقالة ضخمة وهي تضئ الصخور لهذه السلاسل بوهج قرمزي أثناء ما كنا نسرع في سيرنا. كان يحفنا إحساس بعدم الحقيقة حول هذا المشهد العام. وكان الصمت محسوساً لم يكن هنالك صوت عدا ضربات حوافر حماري وارتطام أقدام الهنديين، علماً بأننا كنا على عتبة منطقة زراعية واسعة ذات كثافة سكانية.

لم نر قرية رملان وهي قرية كبيرة عند ذيل الوادي وخلف السلسلة البركانية، كما لم نشاهد درب وما يجاورها وهي تقع إلى الأمام من موقعنا هذا. كان وقع اسم أعكدين كوقع الموسيقا في أذني. كانت أرضاً لحادثة مشهورة في تاريخ الأحداث الحولية في تاريخ العصور الوسطى لليمن، ولم يكن موقعها الصحيح معروفاً. أكون بذلك قد اكتشفت وبمحض الصدفة حقيقة ذات مغزى تاريخي كبير. غربت الشمس وأنا على ظهر الحمار أسترجع المعركة التي وقعت في هذه الغابة بالذات في أزمان قديمة لإثراء الدخل الحكومي لمنطقة درب، التي كانت هدفي المباشر. وصلنا إلى أول المجاري بعد أن عبرنا طرف سلسلة أعكدين

وخرجنا إلى دلتا واسعة ممتدة ذات مزارع منتشرة، وذلك خلال خمس عشرة دقيقة قبل هبوط الظلام. وصلنا إلى قرية درب نفسها بعد ساعة كاملة، بسبب الظلام الدامس والمتاهة المعقدة للطرق والحقول والمتاريس، وكان ذلك قبل الساعة الثامنة مساءً بقليل، بعد مسيرة شارفت على الاثنتي عشرة ساعة، ولم يكن معنا طعام نأكله خلالها عدا البيضتين في مسيلة.

تمكنا من التحرك عبر المتاهة بمساعدة بعض الناس، خلال شوارع تصطف على جوانبها العشش إلى حيث منزل الشيخ المحلي، حيث قوبلنا بكرم شديد. أحضرت لنا السرائر الخفيفة مع أغطية أكثر إلى داخل المعسكر والذي على أحد جوانبه كان منزل الشيخ يشرف على العشش الشبيهة بخلايا النحل في الجوار التي يسكنها وكلاؤه. كما تم إحضار مصباح إعصاري وأشعل ليضيء الموقع. وأحسست بهمس فهمت أنه يدور حول الرغبة في ذبح عجل سمين. وهذا يعني انتظاراً طويلاً، وقد كنت مرهقاً وجائعاً، وتجرأت بالتدخل، برغم كل الحديث الذي يدور. شرحت موقفي ووجدت حالتي تعاطفاً، وقد تخيلت أن تدخلي في تفضيل شاة على العجل لم يعجب مضيفنا. اقترحت أن قليلاً من الخبز وربما دجاجة وبعض البيض سيكفي لإبعاد جوعي، والذي بعده أحتاج إلى أن أنام. كان هنالك الكثير من الخبز -كما قالوا- واستغربوا طلبي الدجاج والبيض. كان هنالك الكثير من هذا أيضاً، غير أنهم استغربوا أن أقوم بأكل هذه الأشياء - لا يأكل أهل درب هذه الأشياء - إنها التقاليد القديمة! تغلبت على ارتيابهم وانطلق الرسل لجمع الطيور ومنتجاتها. عادوا خلال دقائق ومعهم دجاجتان حيتان ودستة من البيض، واقترب المتفرجون ليراقبوا تقديمها لي كما هي على طبق كبير. أدركوا تماماً أنني لا أستطيع أن أقوم ببلع الطيور وهي حية أو أن آكل البيض وهو نيء، أما ما سأفعله

بكل منهما، فلا علم لهم به. استرجعت صورة السيدة في مسيلة، وطلبت إحضار موقد وقدر ماء للغلي، وسرعان ما أعدوا لي ذلك. شرحت لهم ما أحتاج إليه فيما يخص الدجاج أثناء ما كان الماء يغلي. إن أعناق الدجاج تقطع تماماً كما يفعلون بالضأن، ثم يزال كل الريش. ثم تنزع الأحشاء. ثم أقوم بتوضيح ما يمكنني أن افعله بعد ذلك.

لقد أحدثت فيهم إثارة بلا شك، وكان اهتمامهم قد تضاعف وقد أصبح الماء يغلي وأسقطت من دستة البيض الواحدة تلو الأخرى. انتظاراً لما يلي، طلبت منهم إحضار الخبز وقليلاً من الملح وفعلوا ذلك على الفور، وكان الخبز لا يزال ساخناً من الفرن، انتهت فترة الخمس دقائق التي خصصتها للبيض. لكي أكون على الجانب الآمن إن كان بعضها غير طازج. وبدأت ألتهم أجمل أنواع خبز الدخن مع البيض المسلوق. لم يكن لرفيقي القادم من صبيا أي تقدير ليشاركني في تناول كليهما، وقد أزلنا الجوع عنا، تناول بعد ذلك سريره وذهب بعيداً إلى زاوية هادئة ليطرد متاعبه بالنوم. أحضروا الدجاج في هذه الأثناء، تماماً كما طلبت وأسقطتهما في الماء الذي يغلي والذي كان به البيض. ولما كنت قد تناولت كل ما أمكنني، فقد تركت الدجاجتين تغليان في الماء حتى جاء وقت ذهابي للنوم، حينها أخرجتهما من الوعاء ووضعتهما في مكان آمن لتبردا حتى وقت الفطور.

جلست أحادث رفاقي وهم يتسللون تدريجياً مع تقدم الليل، وقد تمكنت من رد جميل كرمهم إليهم في اللحظة. كان القليل منهم من المدخنين، وقد استطعت أن أهديهم بعض التبغ من مستودعي المستورد ولم يعجبهم بالمرة. أعجبهم الشاي ولهذا قصة. لم يكن معي شاياً حينما وصلت، غير أنه اتضح أن قدومي لم يكن غير متوقع. كانت المجموعة الرئيسة لفرقتي، بعد أن فقدوا كل أثر لي خلال الليلة

السابقة، ولم يقابلوا رسلي، قد قرروا أن يعسكروا في الطريق وأن يسلكوا الطريق العادي الساحلي أثناء النهار حتى وصلوا إلى ذيل وادي بيض، في موقع ما أسفل مكان عبوري له. عسكروا هناك لقضاء الليلة إلاَّ أنهم أرسلوا رسولاً إلى درب في حالة مروري بذلك الطريق، لإخبارهم بأنهم سيتوجهون في اليوم التالي إلى شقيق، حيث يتلاقى الطريقان، وينتظروني هناك إن لم أكن قد سبقتهم. أرسل سعد ذو التفكير الثاقب مع الرسالة بعضاً من الشاي. لا أذكر إطلاقاً أنني استمتعت بأمسية مثل تلك. لقد نمت نوم العادل بكل تأكيد تحت النجوم، وأفطرت ومعي رفيقي صباح اليوم التالي على الدجاجتين وعدد كبير من البيض والخبز والشاي.

كان مضيفي الشيخ محمد بن هادي المنجحي واحداً من أسمن الرجال الذين قابلتهم، يزن ما لا يقل عن ١٨ حجراً وهو شخص متقدم في السن، لطيف، كثير الكلام، طيب. أخبرني أنه قد ورث الاتجاه نحو البدانة من والدته، وسألني ماذا يفعل بالنسبة لذلك؟ اعتقدت أنني قد تعرفت عليه بما فيه الكفاية في تلك اللحظة لأقترح عليه أن يتجنب لحم الضأن والدهون والسمن، ويعمد إلى تناول الدجاج والبيض وشرب الشاي والقهوة بدون سكر! كان عليَّ أن أمنع الأكل الشره للخبز الحار الذي هو غذاؤهم الرئيس مع اللبن والذي يعدونه في صنفين محلّى وحامض. يخبز كلاهما بنفس الطريقة غير أنه في حالة الخبز الحامض فإنهم يعجنون العجينة ويتركونها مدة ٢٤ ساعة قبل إدخالها الفرن. لم تكن قبيلة منجحي من أصل الأشراف، بل من العرب الدنيويين ويزعمون صلة مع بني تغلب وهؤلاء فرع من قحطان. سافر شقيق الشيخ، واسمه حمد، قبل أيام من زيارتي مع مجموعة محلية من ثلاثين حاجاً بما في ذلك أربع من النسوة، ولم تنسهم

القرية أثناء غيابهم. وقد ظلت النسوة لـعدد من الساعات أثناء الليل يتضرعن إلى الله تعالى في الدعاء لهم. عـبرنا حقول درب صباح اليوم الـتالي، ومررنا بامرأة متقـدمة في السن، تنشد في طرب لابنهـا الذي كان ضمن المجمـوعة التي ذهبت إلى مكة. يتضح من هذا أن النظام الإدريسي قد طبع في كل هذه البـلاد، احتراماً حيوياً للأسس الإسلامية.

كـان الشيخ وأبناؤه الثـلاثة في وداعي، وكـان عليَّ أن أعتـرض على سلوك الابن الأصغر بسـبب تحديقه غير المهـذب. كانت المناسبة -عدا ذلك- جيـدة كما كانت الليلة السابقة، غيـر أن عَيْنَيَّ قد أزعجهما كثرة البصـاق الذي يقذفه ماضغو البرتقال وكان من بينهم الشيخ نفسه.

حضـرت مجلس الشيخ بعـد الإفطار الذي يستقبـل فيه شكاوى والتمـاسات رعيته، كما يحكم في العديد من الخصومات، ولم يكن مكتبه عاطلاً عن العمل. كان أسلوبه القضائي لطيفاً. ويبدو أن الناس يدركون ما يوَدُّون قوله، وكان يدعهم يدلون بما لديهم قبل أن يصدر الحكم، مختصراً ومحكماً، مع إحساس بأنه نهائي. كان يستطيع القراءة والكتابة بامتياز على عكس الكثير من العرب الذين من جيله. كان مقر سكنه بسيطاً وجيـد البناء، كما لاحظت من فوق سطحه أنه توجد منازل مشابهـة له في القرية، كانوا قد أحضـروا حجارة بنائها من صخـر بني أحمر من أصل بركاني - من مـستخرجـات الحجارة من ربوة صـغيرة تسمى كـد على بعد نصف ميل في اتجاه أعكدين، والتي قد تُـكَوِّن بروزاً خـارجياً منعزلاً له. لا بد أن يكون عـدد سكان درب نفسـها مماثلاً لذلـك في أم الخشب، وربما تضـاعف لنقل ١٠,٠٠٠ نسمة باعتبار كل القرى في دلتا عتود.

ينساب الجانب الرئيس من الوادي ماراً بالجانب الشمالي من القرية فوق بطن عريض حصوي، ويرتفع الجانب الأيمن الصخري إلى ٢٠ قدماً، بينما تجد مساحة القرية المقابلة الحماية من متاريس من الطين تقيها أخطار السيول. ينبع كل من وادي عتود ووادي ضلع من موقع متجاور في جرف جبال السراة بالقرب من أبها، ثم يتحدان في نهاية الأمر في موقع يسمى مخضة، حيث يوجد جدول من برك صخرية. إن كلاً من وادي رملان، ووادي حرمان، ومعهما مجاريهما المتعددة، ما هما إلاَّ فروع جانبية من الجدول الرئيس بعد خروجه إلى السهل ليكون الدلتا، غير أنني لم أجد معلومات تؤكد هذه النقطة. نستطيع رؤية جرف جبل الريث وصخوره الخطرة ناحية الشرق من موقعنا على بعد، غير أننا لا نرى العكوتين الآن. نستطيع رؤية مجرى عتود وهو ينحدر من بين قريتي قرار ونغبي على مسافة ميلين، كما يلاحظ على البعد نفسه وجهة الغرب سداد الذي سنعبره بعد قليل. تقع قرية عتود نفسها إلى جهة الشمال الغربي، غير أنها بعيدة وغير مرئية. كما لم يمكننا رؤية رملان –ربما معش رملان– خلف أعكدين ناحية الجنوب الشرقي. لا توجد زراعة قمح أو شعير في هذه الدلتا، وهي مشهورة بإنتاج نوعي الدخن، التي تصدر منها كميات كبيرة في السنوات الجيدة، ويزرعون إلى جانب هذه المحاصيل الغذائية، أيضاً السمسم لزيته والأندقو الذي يسمى حواراً. ينتج حوار محاصيل بلا انقطاع طالما وجد الماء، بينما تحصد زراعة الدخن عدة مرات، تصل إلى ثلاث أو أربع كما في بقية أنحاء تهامة.

كان سيل الأسبوع الماضي عالياً في وادي عتود أيضاً، ونفق العديد من الضأن إلاَّ أن آثاره العامة كانت مفيدة إذ ظهر نشاط كبير في الحقول ذات المتاريس ونحن نعبر خلالها مواصلين مسيرتنا في الصباح. كان عمل المتاريس من بين كل

العمليات الزراعية في دلتا تهامة هو الأكثر أهمية وهو الأصعب، وتقوم بعمله فرق من الثيران تحفر سطح التربة بمجرفة خشبية واسعة وثقيلة وتجمع التربة التي تم حفرها على منحدر. إن عملية الحرث هنا ما هي إلاَّ تجريح فقط للسطح وتستخدم الثيران منفردة أو في أزواج لتجر المحراث الخشبي البدائي الخفيف الذي ركبت فيه قطعة محددة من الحديد. كان البذر هو البساطة بعينها، مجرد النثر باليد ويتم الحصاد بواسطة المنجل. تحفر آبار القرية عبر طبقات الطمي المتراكم إلى مستوى الماء، وقد لاحظت بجوار بئر عبرنا بها بعد مغادرتنا للقرية صفاً من الرواقيد الاندقو ممتلئة بالسائل الصبغي.

كانت الزراعة شاسعة في سداد غير أن المحاصيل كانت فقيرة. عبرنا فيما يليها مجرى وادي حطب، وهو بلا شك شريط من الدلتا نفسها، لنصل إلى بئر حشفة وهي آخر مشرب للماء يقابلنا حتى نصل إلى جوار الشقيق. كانت البلاد فيما يليها عبارة عن سهل قمبورة الطيني، العاري غير قليل من أراك مبعثر وشجيرات طلح ومن حين لآخر أشجار التنضب -يسمى محلياً سداداً-. كانت آثار جمال الحج واضحة وفي عمق على الطريق الصحراوي الذي لم تصله سيول عتود، ويزرع على مساحات خلال المواسم ذات الأمطار الجيدة، على الرغم من أنه ليس من الصعب إدخاله تحت نظام الري إذا أمكن السيطرة على وادي عتود في مجراه الأعلى. كان سفرنا على الدواب لطيفاً في هذا الجو البارد، إلاَّ أنه ثقيل، لهذا اليوم الملبد بالسحب - لم يكن هنالك ندى، بالمناسبة، أثناء الليل في درب - وقد استغرق وصولنا إلى منخفض (مفش) الكثير الأشجار حوالي الساعة الواحدة. ليس هذا -بدون شك- جزءاً من نظام الدلتا، إنه فقط خط تصريف يبدأ من السلاسل الجبلية البركانية ويجري مباشرة إلى البحر، وهو عبارة عن شريط عريض لغابة مثالية تحفها الصحراء على الجانبين. ويعرف عند أجزائه العليا بوادي بركة وتحفه أشجار الدوم.

أرسل الشيخ محمد أحد عَبيده ليخدمني كمرشد ويرافقني حتى الشقيق، كما أمدنا بالحمير، بينما أنهيت خدمات رفيقي القادم من صبيا بعد تجاربه المرهقة لليوم السابق مع مكافأة مناسبة هي أن يعود راكباً الحمار الذي أحضرني من هناك. كان مثالاً ممتازاً للإنسان عديم العقل، وبلا قدرة على الاحتمال، إلاَّ أنه كان مخلوقاً ودوداً وأحست بالأسف كثيراً ناحيته. كان على حافة البكاء خلال المراحل الأخيرة من تلك المسيرة الطويلة. كان لحمير درب ميزة خاصة اكتشفتها سريعاً، وهي أنني ورفيقي الجديد كنا نسير بسرعة المسيرات الجنائزية.

واجهتنا بلاد صعبة ذات شجيرات قصيرة بها العديد من العلقى ونبات الثمام نامية في كتل في الرمال بعد أن تركنا من ورائنا آخر آثار الغطاء النباتي لمفش. كانت قطعان الأغنام والأبقار ترعى من منطقة الشقيق كما مررنا بآثار السيارات هنا وهناك أثناء سيرنا الصعب. ظهر أمامنا على بعد الشريط الأخضر لوادي ريم مع بعض أشجار الدوم المتناثر، وبدأت تظهر قراه الصغيرة القليلة ونحن نقترب أكثر، منها قريتا قاع وحسام على جانبي الوادي ودملاج فيما يليها. ثم وصلنا إلى بئر ليست بالبعيدة من البئر الثانية في هذا الثالوث، حيث وجدنا حاجاً هندياً آخر يرتاح خلال حرارة النهار، جاء من حيدراباد (السند)، وبدأ رحلة حجه مع شقيقه الذي كان مرضه سبباً لموته في ميدي. كان يجهد نفسه في السير الجاد الاضطراري على قدميه، يسافر طول الليل ومعظم النهار ويعتمد على الصدقة ليعيش أثناء الطريق.

أفسحت الصحراء تدريجياً المجال لغابة خفيضة، عبرنا داخلها بقرية سلب التي تم حصاد محصول الدخن فيها للمرة الأولى، وكان في اتجاهه للحصاد الثاني. كانت قنابر الصحراء تغرد بعيداً بمرح، بينما تجمعت مجموعة من النسور فوق جثة حيوان على جانب الطريق، وتحيط بهذه حلقة خارجية من طيور الغداف

تنتظر دورها في الوليمة. استمتعت برؤية زوج من الغداف، في حالة مناسبة، أثناء هذه المسيرة، وهي تهاجم وتطرد نسراً منفرداً اختلفا معه حول الموضوع. كان السطح في الجوار حول سلب ومن ورائها قوز مكسراً بالتلال الرملية ونحن نقترب من مجرى ريم. كان وادي ريم نفسه في هذا الموقع مقسماً إلى مجريين بربوة رملية طويلة منخفضة، وكان هنالك نمو كثيف للطرفاء والأثل على جانبي بطن الوادي الضحل.

تقع الشقيق على مسافة تقل عن نصف ميل فيما يليه وقد وجدناها في زحمة سوق الأحد. كان يوم السوق في درب هو الخميس. لقد سرنا الآن بقرب الساحل مرة أخرى، وتقف للشقيق إلى الخلف على بعد ميل واحد منه، على الذيل المنتشر لوادي ريم، وهي واحدة من المواقع التي تم اختيارها بواسطة الحكومة لإنشاء مركز شرطة صغير، الذي جمع بين مهمات الشرطة العادية ووظائف حرس الحدود. ذهبنا ناحية مبنى الشرطة فوق أرض مرتفعة قليلاً، تطل على القرية التي مررنا بها عند الوصول، لنجد الترحيب والضيافة والسكن الذي قدمه لنا علي الشاويش المسؤول، لم يصل بعد قطار عفشنا غير أنه وصل سالماً مع الغروب، وهكذا اجتمع شملنا مرة أخرى في مكان مناسب هو موقع التقاء طريقين مختلفين، كلانا كان يتبع واحداً منهما. سيكون هنالك طريق واحد فقط من هنا إلى الشمال.

تقع الشقيق في جزأين يفصلهما أحد مجاري دلتا ريم، يقع مركز الشرطة في القسم الجنوبي ويقع السوق في القسم الشمالي. كانت الساعة تشير إلى الرابعة مساءً حينما وصلنا، وذهبت فوراً لتفقد السوق، الذي كان لا يزال يحفل بالمرتادين حتى عند تلك الساعة المتأخرة. كان الشارع الرئيس وأيضاً الوحيد في هذا القسم يتكون

من خط مزدوج من المتاجر المبنية من الوتل والأعواد، والتي يدور فيها الكثير من البيع والشراء. إلى جانب أصحاب المتاجر، كان هنالك مدربو الصقور والباعة المتجولون، يحتلون مواقع أمام المتاجر أو في وسط الشارع، بينما كان سوق الحيوانات للأبقار والجمال وما شابه ذلك في أرض واسعة كأرض المعسكر تملأ الفراغ بين السوق والوادي. كان لسكان المكان المظهر المدني ولباس أهل المدن أكثر منه مظهر المزارعين وكانوا -في معظمهم- تجَّاراً بأسلوب صغير يستوردون سلعهم من بائعي الجملة في جازان. قابلت وتحادثت مع العديد منهم، بما في ذلك العمدة الشيخ هادي القرني الذي أراني العناصر الرئيسة لمناشطهم التجارية. لربما كان أكثر هذه إثارة هو جماعة من النسوة والفتيات يقمن بعجن كميات ضخمة من جبال الدخن لتقديمها إلى أفران تقف بالجوار لصنع الخبز.

إن الشقيق هي مركز مستعمرة من قرى صغيرة مبعثرة حول دلتات وادي ريم ووادي عرمرم، على بعد ميل واحد أو أكثر ناحية الشمال. لقد ورد ذكر بعض هذه القرى من قبل. كانت قرية ساحل من بين القرى الأخرى، هي الأقرب إلى البحر داخل غابة أثل ونخيل تمور، تمتد حتى حافة مسطح أملح الذي يفصل بين الأرض الحقيقية والبحر، وكان البحر يبعد حوالي ميل ونصف الميل عن السوق. تقع قرية أم الشرفة اتجاه أعلى الوادي على مسافة ميل واحد، بينما تقف قرية حجمير على الشاطئ الأيمن لعروم، على بعد ميلين. تقع قرية نحوس على الجانب الأيسر لعروم وعلى الطريق الأمامي، بينما تقع شعوف اتجاه أعلى الوادي ومعها قرية رزخ وقرية زبارة. كانت قرية أم الدغابس، ومزارعها الواسعة لأشجار النخيل، أقرب إلى البحر وعلى يسار نهوس وبناء على المعلومات المحلية، فإن وادي ريم له مستجمع ماء مشترك مع وادي حليّ (أو وادي البرك) في سلسلة تقف

عليها قرية شعابين المهمة. بلا شك أن الواديين يعودان إلى تاريخ اليمن في العصور الوسطى. يجري ريم من هنا عبر قسمين من رجال ألمع وهي قرية مهمة أخرى داخل حزام التلال، ليعبر إلى الأرض المرتفعة البركانية الخارجية، ومنها إلى السهل ثم البحر. يجب أن يعد عرمرم في هذه الحالة، مصرف ثانوي للمنطقة البركانية، على الرغم من أننا عندما عبرناه بدأ لنا أكثر مهابة من ريم. لقد ذكرت الأرض البركانية في تعابير عامة وذلك على الرغم من أنها ذات نقاط بارزة، إلا أنها في معظمها مساحة منخفضة غير مميزة، تتقارب تدريجياً إلى طريقنا إلى الشمال وتصل إلى البحر داخل أرض رقبة المهيبة، التي يمكن رؤيتها من عند الشقيق، كما كانت هنالك بعض التلال في جوار البرك. تسمى الأرض الرملية على امتداد ساحل البحر إلى الجنوب من وادي ريم أبا لمارو. توجد بها بئر واحدة جيدة، ولا يوجد سكان. لقد انحدر وادي ريم أثناء السيل الكبير الأخير من الجبال وقد هجرت كل العشش التي على مستوى الوادي، غير أنه لم يحدث ضرر كبير.

أكرم العسكري على مجموعتنا بما فيه الكفاية من اللحم والأرز، غير أن طبيخه لم يكن جيداً ولم تكن الوجبة مثيرة للشهية. شاركنا الحاج القادم من حيدراباد في الوقت المناسب لتناول الطعام، وقد ناولته مبلغاً صغيراً يساعده في الطريق، ذلك أنه ينوي السير أثناء الليل على قدميه. لم نر بعد ذلك الهنديين الآخرين ولا بد أنهما قد عبرا إلى ما يلي هذا الموقع. أخذنا زوجاً جديداً من الحمير من هذا المكان ومرشداً جديداً. إلاَّ أن بداية الرحلة قد تأخرت قليلاً بسبب أن حماري له قطعة رفيعة جداً يقولون إنها لجام. رأيت أن هذا ليس بالأمر الآمن ولا اللائق مع كرامتي، ولم يجد ضابط الشرطة الذي يجلب الغم بداً من إرسال أحد إلى السوق لإحضار قطعة من الحبل تحل مكان اللجام، وكان هذا هو أحسن

ما أمكنه عـمله. بدأنا السير وسرعـان ما كنا نخوض بدلاً من أن نسيـر فوق غابة طرفاء مبلَّلَـةٌ بمياه السيول، استـمرت حتى طرف مزارع قريـة أم الدغابس. كانت مزارع نخيل التمـور ومزرعة منها صغيرة فـي بئر مقدم جنوب وادي ريم هي أولى المساحـات لهذه الشـجرة النبيلة التـي نراها في كل هذا الجزء الجنوبي من تهـامة. كانت مساحتـها أكراً واحداً فقط وكانت منتجة، إلاَّ أنهـا بالمعيار المحلي فإن أجود التمر في كل هذه المنطقة هو مـا تنتجه ذهبان، إلى مسافة ناحيـة الشمال. شاهدنا على طرف القرية وعلى جانب الطـريق مشهداً غير عـادي لاثنين من مدافع قديمة كبـيرة مفككة، لا يُعْـرَف شيء عن تاريخها. ربمـا كانت بقايا من أزمـان نابليون أنزلها هنا الأتراك لحـملة ضد الإدريسي أو ضد اليـمن. كان نبات الرين الأصـفر الأزهار متوافراً في كل هذ المنطقة الغدقة، ويبدو أنه عشب ضار تصعب إزالته ولا فائدة منه لأي أحد أو لأي شيء. كـما كان هنالك الكثير من عشب نجـيلي قصير يسمى نجمـة، وبالطبع كتل من الطرفاء في كل مكان، وبعض العلقـى، بينما كان محـصول الصيف للدخن الذي يزرع مع الـسيل الأخير، قـد برز إلى السطح في مجموعات خضراء جذابة.

تتابعت مـزارع نحوس مع تلك لأم الدغابس ومـررنا فوق دلتا عـرمرم الذي ينشق مجراه على مسافة ناحية الشمال الشـرقي، تاركاً مياه سيوله تنتشر بلا ترشيد وتندمج مع دلتا ريم. تغطي هذه المنطقة كتل ضخمة من نبات السواد الذي يسمونه مـحلياً «حـمض» وهو ضرب من جـنس الفربيـون يصنعـون منه نوعاً بدائيـاً من مسحـوق الصابون. أضافت شجرة الدوم واحدة، وثلاث أو أربع شـجرات نخيل التمـور تنويعاً إلى المنظر، كـما كانت طيـور القنابر المتوجـة تغني بلا توقف أثناء مرورنا. أكلت الحمير ومضغت نبات السواد وهي تتعثر في جهد حتى عبرنا خارج

الدلتا إلى أرض كثبان رملية فوق أرضية طينية، سيطرت الرمال سريعاً على المنظر. تقع أمامنا أرض رقبة ومعها سلسلة حايل على يمينها والتي عليها يتعرج طريق الحاج فوق سهل برك. تمتد الكثبان الرملية أحياناً في موجات منتظمة ذات ارتفاع، وبصفة عامة فقد كان المنظر غير مثير ومضجر حتى وصلنا إلى مجرى وادي نهب، كان جانباه المسطحان ممتلئين بأشجار الباليتو والشجيرات الصحراوية الخفيضة مع بعض الدوم، بينما لمحنا على مسافة نصف ميل مع اتجاه الوادي، بحيرة تربط المجرى مع البحر، ينطلق هذا المصرف من الأراضي البركانية المرتفعة في جوار سلسلة أبيية على بعد بعض الأميال ناحية الشمال الشرقي من موقعنا. أشار دليلي عند نقطة قريبة من هذه الأرض المرتفعة والتي تسمى حصن العوادي إلى أطلال لقلعة قديمة، ربما تعود إلى العصر الإدريسي. مرَّ بجوارنا اثنان من الهنود في طريقهما إلى مكة، رجل طاعن في السن يسير على مسافة ٣٠٠ ياردة خلف شاب قوي، والذي ربما كان ابناً له، وكان يحاول جاهداً أن يلحق بخطاه حسب ضروريات الحالة.

عبرنا الامتداد الرملي للوادي بعد وقفة قصيرة لاستيعاب المنظر، أدركتنا خلالها قاطرة عفشنا وتقدمت علينا، لنواصل سيرنا داخل بهو يضيق دائماً بين أرض الحمم البركانية والبحر، مع شريط عريض من أشجار الباليتو على الجانب الأرضي الداخلي للممر، وكثير من نبات الثمام والحلفا في كل مكان. كانت بلاداً صعبة غير أنه كانت تشاهد فيها آثار لحركة السيارات هنا وهناك حيث يمكن اختراق السطح. لقد كان هو الطريق الوحيد المتوفر لأي نوع من الحركة، وحتى للسير على الأقدام فقد كان طريق الحمم مستحيلاً. لقد طوقتنا الآن ناحية البحر في شريط شبه دائري يمتد من هضبة حصن العوادي، عبر سلاسل خبارية وحايل إلى

رقبة والذي غسلت أقدامه الأمواج، ينحدر خلال هذه البلاد الصعبة مسيل مدع لينتهي في مسطح سبخة واسع، والتي يقال إنه لا يمكن السير فيها تحت ظروف البلل لأي ضرب من الحركة، كان المار يختار طريقه على حافة الحمم البركانية، أما السيارات فعليها أن تنتظر حتى يجف المسطح.

يوجد ثقبان مائيان في زاوية حقل الحمم البركانية، حيث يدخل المسيل إلى المسطح، تسميان معيان في مجموعة صغيرة من أشجار الدوم والنخيل مع انتشار كبير لأشجار الباليتو. الماء صالح للشرب، بالرغم من أنها تبدو منقرة داخل ثقوب ضيقة عمقها حوالي القدم الواحد، متماسة مع حافة الحمم البركانية، التي اختلطت هنا مع حجر مرجاني مملوء بالحفريات الإسفنجية. قمت بفحص المنطقة بعناية وتوصلت إلى الاستنتاج بأن الشعاب المرجانية لا بد وأن تكون قد تكوَّنت قبل انفجار البركان، الذي دفع بالحمم البركانية عبر سطح الشعاب المرجانية والتي قاومت جزئياً تغلغل اختراق الحمم لها وتم رفعها كاملة إلى أعلى. تغطي الشعاب المرجانية في بعض الأجزاء الحمم البركانية عند ارتفاع معتبر فوق سطح البحر. يتضح أن هذا المسطح المحلي كان جزءاً من أرض انحسر عنها البحر إلى مسافة ميل واحد على الأطراف الحالية لخليج صغير، ينتهي إلى انبعاج جميل تحفه غابة المانجروف. يطوف ممرنا الخارجي مع الحافة الداخلية لهذا، مسافة فوق طريق معبّد صناعي من كتل حمم صعبة. أصبحت الصورة العامة للأرض البركانية واضحة الآن، وكل النقاط البارزة المختلفة كانت مخاريط بركانية قديمة بعضها تكسر بعوامل طبيعية. كان هنالك الكثير من نبات خزامى البحر في الخليج الذي يقع بين الحمم البركانية وحزام غابة المانجروف، وإلى جانب حشيشة شائكة خشنة، بينما كانت غابة المانجروف نفسها والخليج فيما يليها مصدر وجبة سمك لمستعمرات من

طيور البلشون، التي طارت حينما مررنا بجوارها. رأيت أيضاً طائر بجع منفرد يخوض في الخليج بعيداً عن مدى بندقيتي.

كانت مسيرتنا صعبة جداً فوق الصخور، ونحن نمر من البهو إلى ساحل تكسوه الحمم البركانية وخليج يمتد إلى ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة على جانبنا الأيسر، وساحل مرجاني قديم قريب منا على اليمين، وقد ارتفع فوق سطح البحر في مواجهة صخرة من الحمم البركانية تقع خلفه. عبرنا خليجاً كبيراً من السبخة بعد أن ابتعدنا عن الخليج المائي على حافة الحمم البركانية، كانت تنمو عليه أعشاب خزامى البحر وغابة منظمة من المانجروف على جانب البحر.

اتسعت المسافة بين البحر والحمم البركانية في هذا الموقع إلى مدى الميل الواحد، بينما مررنا في أحد المواقع بمساحة معتبرة من مسطح الماء على يميننا، وقد انعزل من الخليج المائي. كان عرض الساحل لا يقل عن الميل الواحد عندما اقتربنا من صعود الحقل الحممي البركاني الحقيقي، وكان طريقنا يقع أولاً فوق الشعاب المرجانية ثم فوق خليط من شعاب مرجانية وحمم بركانية، ثم فوق انتشار خفيف لحمم بركانية مندلقة فوق الحقل الرئيس. وقف مخروط رغبة من فوقنا وينحدر منه مسيل يجري إلى أسفل من الحافة الشرقية المكسرة لفوهة البركان. تجري قاعدة البركان تجاه الجنوب الغربي من الموقع الذي يبدأ فيه الطريق إلى الصعود، وحتى حافة البحر على بعد ثلاثة أرباع الميل، والذي منه تصعد مرة أخرى إلى جدار من الحجارة المتخلفة من رماد البراكين وحمم بركانية على ارتفاع ٥٠٠ قدم. كان طريقنا ضيقاً جداً يخترق برية الجلاميد البركانية، متكومة في أكوام غريبة الشكل الطبقي فوق أرض من الحجارة البركانية، أو ربما شعاب مرجانية وقد حرقها الانفجار البركاني، تمتد شرقاً في حزام عريض من سفوح رغبة، والذي تجري

قاعدته في هذا الموقع في اتجاه موازٍ لنا على مسافة ثلاثمئة ياردة. كانت قافلة عفشنا ترزح مجهدة أمامنا، وكان خلفها أحد الأعراب تصحبه امرأتان وجمل وبعض الأغنام، -أيضاً مثلهم في الجهد-. أمكننا رؤية حاج هندي عند نهاية الطريق يسير وحده، بينما إلى مسافة من ورائنا، وعلى مستوى الساحل، يمكن رؤية ثلاثة هنود آخرين وهم مسرعون.

استغرق وصولنا إلى قمة الطريق حوالي عشرين دقيقة، ولم تكن بأكثر من مئتي قدم فوق سطح البحر، إلاَّ أن الوصول إلى هناك كان عملية مرهقة أثناء أدائها. يصعب التصديق بأن السيارات يمكنها أن تقطع هذه المسافة من لسان الحمم البركانية في أي موقع منها، إلاَّ أنه وبلا شك قد تم ذلك في المناطق المكشوفة إلى الداخل والتي لا يعرف دليلي عنها شيئاً، ولعلها تكون على شريط يربط بين مشرب معيان ووادي بشير على الجانب الشمالي للحمم. لاحظت هنا أن الصخر البركاني الأبيض كان مختلطاً مع الأصداف وسجلت الاستنتاج المبدئي بأنه إما أن يكون قد تم سحقه وتحول إلى مرجان أو هو خليط من المرجان مع رماد بركاني. كان المنظر من قمة الطريق مؤثراً، وكانت جزيرة كدميبال (أو كتمبيل) هي السمة الأساسية لها- وهي تركيب مخروطي هرمي من صخر أسود يسبح في البحر كأنه جبل جليدي ضخم إلى البعيد خارج الساحل.

كانت واحدة من بين العديد من المخاريط البركانية التي تنتشر في المنطقة كلها التي تقع داخل نطاق الرؤيا، إلاَّ أنها كانت الوحيدة التي يمكن ملاحظتها داخل البحر بالفعل. كانت رغبة نفسها مؤثرة باتساعها إلاَّ أنها مكسرة على القمة وأطرافها الداخلية كذلك، بينما تحتل وسم، وهي علامة أرضية مهمة بارزة في القحمة، المركز الثاني من الناحية الجمالية بعد كدميبال. تقف وسم على حافة الماء على الجانب

البعيد من ميناء القحمة التي تشرف عليها تماماً. يرتفع رقعه -وهو شبيه بالجبل الجليدي أيضاً- على الجانب القريب من وسم، بينما كان المنظر الداخلي من القحمة وجنوباً منقطاً بعدد من المخاريط وكتل بركانية أقل حدة. كان من أبرز هذه كل من خرمة وحومه وحايل، بينما علّم مجرى وادي حمضة شريط من الروابي، من أولى هذه إلى البحر أمام القحمة. نستطيع رؤية حصن أم عواضي ناحية الشرق من موقعنا وعلى قمتها القلعة المدمرة. ألقينا نظرة، مباشرة أسفل موقعنا وعند النهاية بطريق سهل يقود إلى أسفل لسهل نميش الذي يكثر فيه شجر الدوم على امتداد مجرى ضحل صرفي، يجري بدوره على امتداد الطريق البعيد لحقل الحمم البركانية تجاه البحر على الجانب الشمالي لرغبة، والذي تغطي كتلتة المرئية لنا حوالي ثلاثين درجة على مسافة ثلاثمئة ياردة من موقعنا.

وصلنا إلى السهل خلال عشر دقائق متجهين ناحية الشمال الغربي، على الجانب الأيمن لخط الصرف، الذي نحفه وتوجد بداخله أشجار طلح بينما اكتسى السهل بينه وبين الساحل بأشجار خفيضة جافة، وحشائش مع بعض شجر التنضب من حين لآخر. كان السير هنا جيداً فوق أرض ثابتة طينية ووصلنا بعد مسيرة نصف ساعة إلى رأس خط الصرف الذي يوجد فيه على مسافة نصف ميل إلى اليمين مجموعة من الثقوب المائية (ملازم) تسمى نميشاً، ينحدر خط الصرف هذا من مخروط وسلسلة حايل التي منها ينحدر مجرى صرف آخر يتجه إلى الشمال مع طريقنا ليتصل مع وادي بشير الضحل أمامنا. وجدنا أحد روافده يتفكك داخل الطريق، إلى روابٍ رملية ينمو عليها الدوم، وفيما يلي هذه لا يوجد ماء إلاَّ في مواسم جيدة السيول. خرجنا إلى سهل سبخة واسع فيما يلي هذه المجموعة من أشجار الدوم تكسوه حشائش شحيحة وشجيرات حمض

خفيضة، وتحفه على أحد الجانبين سلسلة رملية خفيضة قريبة من الساحل وعلى الآخر كثبان تمتد إلى الخلف إلى حافة حقل الحمم البركانية من حول خرمة. توجد فجوة واسعة بين هذا القسم لحقل الحمم واندلاقه براكين حومة، ينحدر خلالها وادي بشير الذي يأتي من سلسلة السودة إلى الخلف من بعيد. تقف سلسلة جب المنخفضة التي -كما قيل لي- يوجد فيها بقايا المقبرة الهلالية، ويربطه الأهالي بالأساطير المحلية لقبيلة بني هلال.

ليس لوادي بشير نفسه أهمية كبيرة، فهو منخفض واسع رملي وضحل، وبه العديد من البرك المالحة في مجراه. يمتد الوادي على مسافة نصف ميل مع اتجاه أسفل الوادي من موقع عبورنا على امتداد قدم رقعة على جانبه الجنوبي ليصل إلى البحر، على بعد ميل ونصف الميل، بالقرب من ثقوب ماء حفاير. تقع هذه داخل مجموعة من التلال الرملية عند حافة الماء، ويقال إن مياهها ممتازة وحلوة.

سرنا فوق أرض رملية فيما يلي وادي بشير مغطاة بكثبان مكسوة بالحشائش تنتهي بجوار البحر في منطقة كثبان سنامية جميلة. قابلنا فيها الحاج الهندي وقد عمد إلى الراحة بعد سيره على الأقدام مسافة طويلة، وكان ينتظر صلاة المغرب، غير أن قافلة عفشنا لم تصل بعد، والتي كانت قد استفادت من توقفي في حقل الحمم البركانية لزيادة سرعتها، لإصرارها على الوصول إلى قدور لحم القمحة لعشاء الليلة. إنه لمن المدهش أن نجد أن الجمال المرهقة يمكن أن تفعل العجائب إذا كان سائقوها بين خيارين إما أن يتناولوا عشاءً فاخراً أو أن يتناولوا عشاء مسافر في الصحراء. بدا لي أن طاقة الجمال في هذه الحالة بالذات قد وضعت في غير مكانها، أخبرتهم بمنتهى الوضوح حينما قابلتهم في اليوم التالي، لأن ذلك قد تسبب في تورطي في مسيرة مدة ثلاث ساعات في الظلام. فقدت بذلك ملاحظة

تفاصيل مساحة صغيرة لهذه البلاد الساحلية، بما أنها لم تكن تستحق ذلك. غطينا فيما تبقى لدينا من ضوء النهار وضوء الشفق منطقة الصحراء، ذات الأشجار الخفيضة فيما يلي وادي بشير، وكذلك حزام سبخي عريض فيما يلي الوادي يمتد من حمم حومة البركانية إلى مسافة ميلين على يميننا، ثم إلى البحر.

دخلنا إلى دلتا وادي حمضة العريضة في وسط كل ذلك، مع انطباق الظلام عند الساعة ٦,٣٠. كنت أتعثر في الظلام ولم أكن قادراً على تسجيل مذكراتي، ولم أصل إلى القمحة حتى الساعة ٩,١٥. وأنا غضبان ومرهق. ضخمّ الظلام - بالطبع- كثافة عرض حزام الغابة التي ملأت الدلتا، غير أنها في بعض الأجزاء بدأت صعبة الاختراق. كان علينا أن نبحث عن المجرى الرئيس في منتصف الطريق عبرها، وكذلك الطريق الصعب لسلسلة حمضة فيما يليها، والغابة الأكثر كثافة فيما بعدها. كنت أود رؤية هذه البلاد نهاراً، ولا بد أنها كانت جنة للطيور، غير أننا لا بد أن نواصل السير جادين لندرك رفاقنا، الذين كان في حوزتهم كل طعامنا وعفشنا. قيل لي إنه في مكان ما في مجرى حمضة توجد قرية بحر بينما تقع قرية خسة الصغيرة لصيد الأسماك وبها مرسى صغير لقواربها، على الساحل عند طرف الدلتا على الجانب الشمالي.

خرجنا أخيراً من الغابة إلى سبخة واسعة مسطحة، تعترض طريقنا من حقل الحمم البركانية إلى الساحل وتندمج في نهاية الأمر مع منطقة رملية يصعب وصفها والتي وصلنا فيها إلى أول مجموعة من أشجار النخيل التابعة لجوار القحمة. لا تتأثر أشجار النخيل بالترب والمياه المالحة، وتتلقى هذه الأشجار ذات التوزيع الخارجي كميات وافرة من كليهما. كانت الأولى منها هي مسبخية مزرعة نخيل وبها عدد قليل من عشش المستأجرين.

يجري طريقنا فيما يلي هذه مدة نصف ساعة خلال مزارع مهملة واسعة، منقطعة، ومتعرجة، تابعة لقرية مغزل. تفصل مسافة بين هذه وبين قرية بريطان، ذات الحمم المتوسطة، تليها مشقور التي تقف فوق تربة أفضل، وتبدو مزدهرة بخطوط أشجار نخيلها العالية الممتدة على جانب الطريق إلى عمق ١٠٠ ياردة على الجانب. لم يبق علينا الكثير لتغطيته، غير أن حماري مشجه الميت قد سقط مرتين في هذه المرحلة الأخيرة، كانت الثانية منهما حينما كنا نعبر الخليج (أو القنال) الضيق. خضت طريقي إلى الساحل وغطيت بقية المسافة مشياً على الأقدام.

أعترف أنني وصلت إلى القحمة وأنا في مزاج متعكر، وسيان لو كنت مخطئاً أو مصيباً، فإنني أعتقد أن الحاكم المحلي لم يكن لبقاً حينما أرسل رسولاً عنه لتحيّتي بدلاً من أن يأتي هو بنفسه. أخبرني الرسول أن الأمير ينتظرني في منزله وذلك لوجود ضيوف معه. كانت إجابتي أنني لن أتحرك من هذا الموقع. ظهر الحاكم بعد ذلك أمام مدخل الجناح المخصص لي ولمجموعتي ومعه كل ضيوفه وكل حاشيته، ودخلنا فوراً في تبادل للاعتذارات وفي هذه الأثناء دارت فناجين القهوة. أدركت في حينها أن عبدالله بن عيسى، حاكم القحمة وهو من مواطني الرسّ في القصيم كان رجلاً ذا جاذبية كبيرة. كان في منتصف العقد الثالث وكان يتأتئ في حديثه. لم ينقصه شيء من النبل المدني الذي يميز أهل المدن في محافظته هذه. كانت الرس، بالرغم من أنها أصغر من بريدة وعنيزة فهي مميزة مثلهما بوجود الأمراء التجار الذين أضافوا الكثير لقيادة القصيم وللحياة الاجتماعية في الجزيرة العربية. تحسنت علاقتنا سريعاً، وذلك لأنني كنت أعرف أسرته والعديد من أهل الرس.

كان من بين رفاقه ابن نشوان، ضابط جمارك محلي. أخبرني الحاكم أنه أخذ المبادرة ليدعوني لتناول العشاء، ثم نهض جمعنا كله وتمشينا في الظلام، كلنا في مسيرة جليلة إلى المركز أو المبنى الحكومي. جلسنا عند الساعة الحادية عشرة مساءً حول عشاء ممتاز، عدت بعده إلى عشتي لأنال راحة ضرورية بالمستوى نفسه، ونمت عميقاً لأصحو وقد انتعشت كثيراً. لم تزعجني حتى قطرات المطر القليلة التي تساقطت أثناء الليل، غير أن السماء في الصباح كانت ملبدة بالسحب مع احتمالات لأمطار متوقعة.

كان علينا استبدال جمال العفش التي استأجرناها من صبيا بأخرى تأخذنا من هنا إلى القنفذة. كانت المسيرة من صبيا إلى القحمة على أربع مراحل، وكان الإيجار المتفق عليه هو نصف ريال لكل مرحلة، أي ريالاً واحداً (سدس) لكل جمل لرحلة تستغرق حوالي ٧٠ أو ٨٠ ميلاً. يبدو الأمر رخيصاً جداً، وقد أضفت مكافأة من عندي للرجال الذين اصطحبوا الجمال والذين كانت خدماتهم متضمنة داخل الإيجار بلا مقابل. تركت رفاقي، بعد أن قمت بذلك، لترتيب المواصلات الأخرى وذهبت للقيام برحلة استكشافية، يرافقني الحاكم وضابط الجمارك وحشد من مرافقيهم. تقع القحمة على خط عرض ١٨ْ شمالاً، وتعلّم الحدود الشمالية لمحافظة جازان الإدارية، بالرغم من أن وضعها الطبيعي قد جعلها جزءاً من محافظة القنفذة ممتدة إلى الشمال. تفصل القنفذة عن جازان بواسطة حاجز الحمم البركانية الذي يمتد من حافة البحر في رغبة، وتتميز عنه بوضوح بحقيقة أن نخيلها هو نخيل التمور وليس نخيل الدوم. لا أستطيع تفسير لماذا لا تنتج جازان نخيل التمور -باستثناء مساحات صغيرة في الشقيق- على الرغم من أنها من أخصب أقسام تهامة العربية السعودية، وتستطيع أن تنتج القطن والأندقو

والسمسم والدخن وربما القمح والشعير، وبكميات كبيرة إذا استخدمت مياهها بالطريقة الصحيحة. لم يكن الأمر متعلقاً بخطوط العرض، وذلك لأن تهامة اليمن إلى الجنوب منها، وتهامة السعودية إلى الشمال منها، تنتج التمور. لا بد أن يكون الأمر متعلقاً بالتربة، وهو أمر يستحق الدراسة.

مهما كان الأمر، فإن أشجار نخيل التمور تؤدي دوراً حيوياً في تمييز التركيب الاجتماعي لقسمين متجاورين من تهامة. يعيش الناس في معظم الأجزاء في عشش -في القحم مثلاً- في درب، إلاَّ أن العشش هنا مبنية من سعف النخيل وليس من الوتل والأعواد بينما تسور الزرائب بحاجز من سعف النخيل بدلاً من بناء جدار من الأعواد. توحي سعفات النخيل هذه بعدم النظام، وبالتأكيد فهي لا تبدو نظيفة، مثل غيرها، إلاَّ أنها مقاومة لعوامل الطقس وتؤمن خصوصية كاملة بينما ينصرف مواطنو القحمة لحاجة الحمام الداخلي. تلحق بالعشة التي أعدت لي، مثلاً عشة صغيرة من المادة نفسها، مجهزة بمرحاض من البازلت المثبت بالجبس والأسمنت، أو أحجار الحمم البركانية موضوعة حول الجزء الأعلى من الحفرة التي تصل إلى المياه المالحة تحت السطحية، والتي تقوم بإتلاف كل شيء يصلها وتقضي بذلك على كل ما تنفر منه الأنف. توجد في القحمة مبان حجرية مبنية بصفة عامة من أحجار الحمم البركانية ومطلية بطبقة من الجبس، غير أن الأمير ورفاقه الضباط يفضلون الحياة في العشش، التي يعدونها أكثر برودة وصحية، لعلهم مصيبون في هذا في مثل هذا الطقس الحار الرطب في الجزء الأوسط من ساحل البحر الأحمر. كان مقر الجمارك بناء من الحجارة يتكون من طابقين كما كانت كذلك أماكن الأعمال الخاصة بالتجار، وقد فضل بعض هؤلاء والنبلاء المحليون البناء الحجري سكناً لهم.

تمكنت من التقاط منظر ممتاز من سطح منزل الجمارك للمدينة وما جاورها، وما يلفت نظر المرء لأول وهلة هو أن القرية ليست قائمة على مجرى وادٍ، ولكنها تنتشر فوق حافة مسطح سبخي يتجه ناحية البحر، يملأ الفراغ من وادي حمضة، وقد ورد ذكره، ووادي نجيلة إلى الشمال، الذي هو الحدود الفعلية للمحافظة. يمتد لسان من البحر داخل هذا المسطح بين فجوة ضيقة من قرنين من السبخة، لتكوين الميناء، الذي ينقسم إلى قسم شمالي وقسم جنوبي، كل منهما يؤمن مرسى محمياً للمراكب الشراعية التي تزور المكان. يرتفع مخروط وسم فيما يلي القسم الشمالي، وتقريباً ناحية الغرب من منزل الجمارك، على بعد الميل الواحد على لسان من الأرض يبرز إلى داخل البحر ويحمي ذلك الجانب من المرسى.

تنحني الحافة الداخلية لحزام النخيل من موقع يقع قريباً من القرن الجنوبي للميناء، على وتر لطيف يمر على مسافة ثلاثمئة ياردة من منزل الجمارك على الجانب الشرقي، وينتهي على بعد نصف الميل إلى الشمال منه.

يبلغ متوسط عمق هذا الحزام حوالي مئة ياردة، بينما في صدر الساحل وبين النخيل والميناء تنتشر مناطق السكن الأربع، وهي حشوة الجربا إلى الجنوب منها، وإلى شرق منزل الجمارك، عنقة إلى جنوب وغرب حشوة الجربا وتكون المركز الإداري والتجاري بما في ذلك منزل الجمارك ودعامة الجسر ومقر سكن الأمير، وأخيراً العرق وهي مجموعة صغيرة من العشش بها مسجد بارز على لسان الأرض الذي يفصل بين قسمي الميناء، التي يقع مدخلها على مسافة ميل ونصف الميل إلى الجنوب الغربي من منزل الجمارك.

تقع قرية مشقر التي تنفصل مزارع نخيلها عن تلك التابعة لقحمة بفجوة مقدارها ثلاثمئة ياردة، ناحية الجنوب من موقعنا على جانب البحر لحزامها النخيلي على بعد ميل واحد.

تحتل قرية صيد صغيرة تسمى حرفاً لساناً من الشبكة يمتد داخل القسم الشمالي للميناء إلى مسافة ثلاثة أرباع الميل ناحية الشمال الغربي من موقعنا، بينما تقع قرية حشفة ومزارع نخيلها ناحية الشمال على امتداد سلسلة قدم على الجانب الأيمن لوادي نجلة. يمكن ملاحظة عدد من المخاريط البركانية التي لم تشاهد من قبل -ليس أي منها مهماً- بينما إلى وراء حقل الحمم البركانية، تمكنت من رؤية ثلاث قمم للسلسلة الجبلية الرئيسة -لم أجد لها أسماء-.

هكذا كان ذلك المنظر الذي رأيته من سطوح منزل الجمارك. ينتمي أهل القحمة إلى قبيلة تسمى المنجحة، غير أنني لم أستطع الحصول على أي معلومات حول علاقاتهم القبلية، والتي يبدو أنه قد طواها النسيان منذ زمن بعيد من أذهان القرويين الذين انصرفوا لزراعة نخيلهم وصيدهم وتجارتهم الساحلية الثانوية. لم ينسوا إلى زمن قريب أن مناشطهم التجارية كانت أكثر ازدهاراً مما هي عليه الآن. يقال: إن الطريق من القحمة إلى محايل في التلال، وهو أفضل طريق إلى أبها، هو أيضاً الأقصر والأسهل مقارنة بذلك من القنفذة، ويتعامل الناس هنا بنسبة تجارية عالية مع أبها والمنطقة التابعة لها.

لقد تحسنت ظروفهم كثيراً حينما وسعت الحكومة السعودية مجالات فوائد التطور إلى محافظة القنفذة مع كل الممتلكات للتعريفة المرتفعة والانضباط القوي. أصبحت القنفذة قبلة الأنظار للتجارة مع أبها، غير أن الحكومة قررت، وقبل ستة

أشهـر من زيارتي، أن تمد منافع الحضـارة إلى هذه المنطقة أيضاً. تم تـطبيق نظام تعريفة جدة وأنشئ مكتب للجمارك ليـتحقق من تسديد كل الرسوم. ولا تستطيع القحمة أن تنافس القنفذة الثرية، وماتت تجارتها لتنكيد الناس[١].

(*) قامت الحكومة السـعودية بتطوير كافة المناطق في جازان وعـسير وغيرهما من أنحـاء البلاد حيث وصلت إليها الطرق والتخطيط والخدمات المتعددة حتى أضحت مختـلفة عما كانت عليه وأصبح سكانها يتمتعون بتطور اجتماعي وثقافي واقتصادي كبير. (المراجعون).